

حادثة الإفك

.....
تاب، ثم إن من القذف أو من أكبره فذف عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- وهو الذي نزلت فيه هذه الآيات -سبع عشرة آية نزلت في قصتها جماعة من التابعين، جمع رواياتهم الزهري؛ حيث حدثه مجموعة ممن عن عائشة كعروة بن الزبير وعلقمة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ذكروا أنها قالت: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا أراد سفرا أفرج بين نسائه فأبتهن خرج سهمها خرج بها، تقول: فأفرج بيننا مرة فخرج فيها سهمي -يعني أن كانت هي التي حصل أنه خرج سهمها أي: اسمها- وكان ذلك في غزوة المريسيع، وكانت في حدود سنة سبع أو ست من الهجرة، ولما قفل النبي -صلى الله عليه وسلم- من تلك الغزوة وباتوا ليلة في الطريق، لما كان في آخر الليل أذن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالرحيل -ان أرحلوا- ولما أذن بالرحيل قالت عائشة خرجت من هودجي حتى جاوزت الرحل؛ فقصت حاجتها ثم رجعت إلى هودجها، ولما أقبلت إليه وجدت أن عقدا لها من جُرْع أطفار قد انقطع -عقد تعلقه في رقبتها كزينة- فرجعت إلى موضعها تلمس ذلك العقد، وحبسها ابتغاؤه وطلبه، فجاء الذين يُرْجَلُونَ ويحملون الهودج، فحملوا هودجها يعتقدون أنها في داخله ولم يستنكروا خفة الهودج؛ وذلك لأنها جارية حديثة السن ما غشيها الحمل، لم يستنكروا خفتها وطنوا أنها فيه، ولما وجدت العقد ورجعت إلى مكانها، وإذا الرجل قد قاموا وقد ساروا وقد تركوها، تقول: فلننت أنهم سيفقدوني؛ فاضطجعت في مكاني؛ فغلبني النوم، ثم ذكرت أن صفوان بن المعطل كان يتأخر عادة، وأنه أصبح في مكانه، فلما عزم على الرحيل رأى سواد إنسان، تقول: فعرفني وكان يراني قبل الحجاب؛ فاستيقظت باسترجاعه أنه يقول: { إِنَّ لِيَّ وَوَالِدًا لِّأَبِي رَاجِعُونَ } تقول: فخمرت وجهي، وأناخ لي راحلته، وما كلمني، وسرنا خلف الركب، وألفيناهم في نحر الظهيرة وقد أناخوا للقبولة. فتقول: فهلك من هلك -أي تكلم في هذا الإفك من تكلم- واتهموها بأنها قد زنت بصفوان بن المعطل وأنه ما تأخر وتأخرت معه إلا لأنه زنى بها، وأخذ الناس يخوضون في هذا، وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي ابن سلمو وهو رأس المنافقين؛ فكان يجمع الكلام وكان يستوشبهه وكان يفشيه. ثم تقول: لما قدمت مرضت شهرا، وبقيت في منزلها وهي مريضة، فلما تماثلت تقول: خرجت مع أم مسطح إلى المناصع وكانت متبرزنا، وكنا لا نخرج إلا ليلا إلى ليل -يعني: للتيروز ولقضاء الحاجة- تقول: أمرنا أمر العرب الأول في التنزه؛ وذلك قبل أن تتخذ الكنف في بيوتنا يعني: ما كانوا يبنون في بيوتهم أماكن قضاء الحاجة؛ أمرهم أمر العرب الأولى في التنزه. تقول: فلما رجعنا عثرت أم مسطح في مِرطها-في كسائها الذي عليها- فقالت: تعس مسطح؛ فأنكرت عليها عائشة وقالت: أتسيين رجلا شهد بدرا؟! -وهو ولدها- فقالت: وا هتاه، أوم تسمعي ما قال؟! فأخبرتها بقول أهل الإفك، وكان من جملتهم الذين خاضوا في ذلك مسطح بن أثاة الذي هو ولد هذه المرأة التي أخبرت عائشة لما أخبرتها تقول: ازداد مرضي ازدادت مرضا. تقول: فلما جاءها النبي صلى الله عليه وسلم استأذنت إلى أبويها فأذن لها، فقالت: يا أبي ما يخوض الناس فيه؟ ماذا يتكلم الناس فيه؟ وسألت كذلك أمها أم رومان فقالت لها أمها: يا ابنتي هوني عليك الأمر، والله ما كانت امرأة حظية عند رجل؛ وكان لها ضرات إلا أكثرن القول فيها، تقول: فقلت: وقد تكلم الناس في هذا؟ فرجعت إلى بيتها، تقول: فكيت يومي ذلك لا يرقا لي دمع، ولا أكتحل بنوم، وبكت أيضا لليوم الثاني ولليوم الثالث، تقول: وكان أثر ما أجد البكاء فالق كيدي -يعني من كثرة البكاء الذي بكته من خجلها مما يتكلم الناس فيه-. فتقول: -قبل ذلك- كان يبرسي عدم الشفقة والورع من النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي أجده إذا مرضت، فكان يدخل ويقول: كيف تتكلم؟ ثم يرجع، فلما طال البكاء عليها -بعد ذلك- دخلت عليها امرأة من الأنصار، وجلست تبكي معها، وعندها أبواها فدخل عليهم النبي -صلى الله عليه وسلم- وجلس معها، ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا عائشة إنه قد بلغني عنك كذا وكذا؛ فإن كنت بربته فسيبرئك الله؛ وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري منه؛ فإن العبد إذا أذنب واستغفر غفر له؛ فلما قال ذلك قلص دمعني، فقلت لأبي: أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال. فقال: والله ما أدري ما أقول له. فقلت لأمي: أجيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: ما أدري ما أقول له، ذكرت تقول: إني جارية حديثة السن لا أذكر اسم يعقوب فقلت: إنكم قد بلغكم ذلك وصدقتم به؛ فما مثلي ومثلكم إلا كما قال أبو يوسف { فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ } أي: أنني أصبر صبيرا جميلا، ثم ذكرت أنه في ذلك المكان، نزل على النبي صلى الله عليه وسلم الوحي، تقول: فغشيه ما كان يعشاه حتى أنه ليتحد من جنبه مثل العرق في يوم شات -في يوم شتاء- فلما أفاق قال: يا عائشة أما الله فقد برك. فقال لها أبوها: فومي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله، الله هو الذي برأني، تقول: فأنزل الله قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ } العشر الآيات يعني إلى قوله { رَعُوفٌ رَّحِيمٌ } . هذه العشر في قصتها، الآيات السبع التي بعدها إلى قوله: { إِنَّ الْجَبِينُ لَلْخَبِيثِينَ } الآية هذه أيضا في قصتها، ذكرت أن أب بكر -رضي الله عنه- كان ينفق على مسبوح؛ لكونه فقيرا، ولكونه ابن خالته؛ فلما خاض في هذا الأمر أراد أن يقطع نفقته عنه، وحلف على ذلك؛ أنزل الله تعالى: { وَلَا يَأْتِلْ أَوْلُو الْفُضُلِ مِثْكَمَ وَالسَّلْمَةَ أُنْ تُؤْتُونَهَا بِهَا وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ } قال أبو بكر بلى، والله أحب أن يغفر لي، فأعاد إليه نفقته وقال: والله لا أقطعها، فعمد النبي صلى الله عليه وسلم إلى ثلاثة من الذين خاضوا في هذا الإفك فجلدهم، ثلاثة رجال وامرأة. فالحاصل أن هذه الآيات نزلت في قصة الإفك فقول الله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ } هو الكذب، وكذلك البهتان وهو الكذب الذي لا دليل عليه، ولا أمارة عليه، وذلك لأنهم لما رأوا أنها تأخرت إلى نحر الظهيرة، وأنها جاءت مع هذا الرجل أصقوا بها هذه التهمة، ذكرت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تأخر عنه الوحي خطب مرة فقال: من بعدزني من رجل -وهو ابن أبي- بلغني أذاه في أهلي، والله ما علمت على أهلي إلا خيرا، ولقد ذكروا رجلا لا أعلم عليه إلا خيرا، وما كان يدخل بيتي إلا معي؛ فقام أسيد بن حضير فقال: نحن نعدرك منه إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك؛ فقام سعد بن عباد- وكان رجلا صالحا إلا أنه احتملته الحمية- فقال: كذبت والله لا تقدر عليه، فقام سعد بن معاذ - فقال: كذبت أنت،- هذا يدل على أن القصة متقدمة -فتساور الحيان- الأوس والخزرج- وكادوا أن يقتلوا، ونزل النبي -صلى الله عليه وسلم- وأخذ يهدئهم حتى سكنوا. فكان من جملة الذين خاضوا فيه والذي تولى كبره هو ابن أبي ذكر مرة أم عائشة -رضي الله عنها- كانت تنهى أن يسب حسان مع من جملة الذين خاضوا فيها، قال لها رجل: كيف تدينين له وقد قال الله -تعالى-: { وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ } فقالت: وأي عذاب أكبر وأقوى من العمى؟! وذلك لأنه أعمى فيها، تنهى أن يسب وتقول: إنه كان يذب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- دخل عليها مرة فأنشدتها أبياتا يقول فيها: حسان رزان ما عثرُت بريئة وتصيح عَرَّتْ من لحوم القوافل فقالت: لكنك أنت لست كذلك، يعني أنك لم تصيح أغرغ من لحوم الغوافل يعني أنك تكلمت في هذا، ومع ذلك كانت تعذره وتقول: إنه الذي يقول: فإن أبي والادتي وعرضي لعرض محمد منكم وواء أتهجوه ولسنت له بكفاء فخيركما لشركما الفداء لساني صارم لا عيب فيه وبحري لا تكدره الدلاء يعني: بمدح النبي -صلى الله عليه وسلم- ويلتزم بأن يمدحه، وأن يذب عنه كلام الذين يسبون، كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يشجعه على ذلك ويقول: اهجمم وهاجمم فإن جبريل معك، ومع ذلك أقام عليه الحد الذي هو الجلد ثمانين؛ لأنه من جملة من خاض في ذلك، ثم تاب بعد ذلك وقبيلت توبته، وقبيلت شهادته وقيل كلامه، وأما ابن أبي فإنه مات على نفاقه، كما ذكر ذلك بالأحاديث. ثم سماه الله -تعالى- إفاكا: { إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ } -أي مجموعة منكم- ما ذكر عددهم إلا أن المشهور منهم هؤلاء الأربعة: مسطح وحسان وابن أبي حنمة؛ حمته وهي أخت زينب . تقول: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما أنه تأخر عنه الوحي استشار بعض صحابته، فاستشار زيدا فقال: أهلك ولا تعلم إلا خيرا، واستشار عليا فقال علي لا تعلم إلا خيرا والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك، وكان عندها جارية عتيقة، وهي بريرة فسأل بريرة ما ذا تعلمين عنها؟ فقالت: لا أعلم عنها إلا خيرا، إنها جارية حديثة السن تمام عن عينيها فتأثرت الداجن فتأكله، سال أيضا زينب عنها فقالت: أحمي سمعي وبصري ما أعلم عنها إلا خيرا؛ فعصمها الله تعالى بالورع، تقول: هي التي كانت تساميني يعني فتأخرني من زوجات النبي صلى الله عليه وسلم وأما أختها التي هي حمته فهلكت فيمن هلك. فهؤلاء من جملة العصبة { عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ } يقول تعالى: { لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمَّ } أي لا تحسبوا أنه صدق، وأن فيه شرا؛ بل هو خير لكم، أي ما حدث إلا خير، وما حدث شيء يستنكر. { لِكُلِّ أُمْرٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ } هؤلاء الذين خاضوا فيه، عليهم شيء من الإثم بقدر ما اكتسبوا، والذي تولى كبره منهم -والذي هو ابن أبي- له عذاب عظيم؛ وعذب في الدنيا بالحد، وفي الآخرة هو من هو رأس المنافقين، وحسابه على الله تعالى، غائب الله نبيه لما صلى عليه وقال: { وَلَا تَصَلُّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَا تَأْتِيهِمْ آيَاتُ اللَّهِ وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ } . يقول تعالى: { لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَفْسِهِمْ خَيْرًا } كان الأولى بكم لما سمعتموه أن تظنوا بأفْسِكُمْ خيرا، وألا تتهموا أم المؤمنين التي هي أحب نسائه صلى الله عليه وسلم إليه، وألا تظنوا بذلك الرجل إلا خيرا، لأنكم تعرفونه بالورع، وأنه إما أحسن في جملة لها، ولحوقه بالركب: إلى أن أتبعهم، فما فعل إلا خيرا فتظنون بأفْسِكُمْ وبإخوانكم خيرا. { لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَفْسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَافِرُونَ } . يعني: هذا إفك أي كذب لولا جاءوا، هلا جاءوا عليه بأربعة شهداء، لماذا لم يأتوا بأربعة شهداء؟ فإن من قذف طولب بأن يأتي بأربعة شهداء؛ فإذا لم يأتوا بهم؛ { فأولئك عتد الله لهم الكافرون } فكذبهم الله -تعالى- وبرأ أم المؤمنين من ذلك. { فأولئك عتد الله لهم الكافرون ولولا فضل الله عليكم ورحمته } يعني لولا أنه تفضل عليكم ورحمكم وتاب عليكم { لتسكنكم في ما أفضتكم فيه عذاب عظيم } يعني فيما تكلمتم به أيتها العصبه، فيما تكلمتم به عذاب أليم -عاجل أو أجل- ثم يقول: { إِذْ تَلَقَّوهُ بِالْحَمِيئِ كَإِذَا تَلَقَّوهُ بِالْحَمِيئِ } أي تستقبلونه- ذكر أن عائشة قرأت هذه الآية إذ تَلَقَّوهُ -يعني: تلفظونه وتقولون: الولي وفي الكذب وكانت أعلم به؛ لأنها نزل في شأنها؛ ولكن قراءة الجمهور تَلَقَّوهُ يعني: تستمعونه ثم تلفظونه وتتكلمون به بالسنتكم وتقولون بأفواهكم، أي تتكلمون بأفواهكم ما ليس لكم به علم، أي: ليس لكم إلا الظن مجرد الظن -تتكلمون فيه بغير علم- وتحسبونه هينا يعني أنه أمر سهل ليس فيه إثم، وهو عند الله عظيم، ذنب كبير. لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ أَي من هؤلاء الذين يخوضون فيه، قلم: ما يكون لنا أن نتكلم بهذا لا يحق لنا أن نتكلم به، سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ، يعني: تسبحون الله تعالى وتنزهونه، وتتوبون إليه، وتعرفون أن هذا بهتان، والبهتان: هو الكذب الصريح؛ البهتان هو الظلم. بهته: يعني: ظلمه وكذب عليه. { يَعْطِكُمُ اللَّهُ أَن تَعُوذُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا } ينصحبكم ويخوفكم، لا تعودوا لمثل هذا أبدا -بقية حياتكم-؛ حتى لا تفعلوا في هذا الإثم، { إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ } يعني يحذركم ويخوفكم أن تعودوا لمثله أبدا، { وَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ } أي في مثل هذه الآيات لعلمكم أن تعقلوا وتفهموا الأحكام.